

قراءة أولية لمحورين من الماركسية

فؤاد صديق

«كانت الماركسية لأكثر من قرن لغة الملايين للوصول بهم الى تحقيق مجتمع يسوده المساواة» ماك ليلان

ظهرت على الساحة ومنذ اكثر من قرن فكرة تروج أن الماركسية في مازق. كان (برنشتاين) من بين اكثر اولئك الذين كانوا يحاولون جر الماركسية الى غير طريقها الثورى. في تلك الحقبة الزمنية بالذات قام اكثر الماركسيين النظريين عبقرية «بليخانوف» بالرد على «برنشتاين» لم يكن لينين آنذاك قد ظهر نجمه كسائح في اعماق الفكرة الماركسية واضفاء المزيد عليها ونشرها بين الشعوب»، انظر الى احدى محاضرات بيخانوف تحت عنوان «، حول ازمة مزعومة للماركسية.،، كان «برنشتاين وكونراد شميت» العنوان لمحاضرة ألقاها بيخانوف في جنيف في ربيع عام ١٨٩٨ واعاد الإلقاء في مناطق أخرى.

كانت فكرة «الماركسية في مازق» وهى محور حديثنا الآن لم يكن لها ذات التأثير في القرن العابر كانت الفكرة تتم تبادلها بين قلة من الناس هنا وهناك. كانت القلة القليلة هؤلاء من المحاقدين على الفكرة. غيران الفكرة، فكرة الماركسية في مازق، بدأت تتأصل جذورها شيئاً فشيئاً بعد الصراع العالمي الثاني في عام ١٩١٤. وكان كاوتسى من اكبر مروجى الفكرة. بدأت الفكرة تروج لها خاصة بعد موت لينين وسنوات الحكم الفردى لستالين واسط العشريينات من القرن الماضي فصعوداً وعند حدوث النزاع الفكرى الصينى السوفيتى وماتلاه من نزاع بين السوفيت والاحزاب الشيوعيه الاوربية بعد الاعتداء على چيكوسلوفاكيا وظهور الاورو الشيوعية في سبعينيات القرن الماضي وبعدها في عهد الپتروسترويكاف وفي زمن سقوط النظام السوفيتى واوروبا الشرقية. لقد قاموا بالترويج كثيراً لفكرة «الماركسية في مازق» ووطدوا من جذورها أكثر فاكثراً. لقد أمنوا الارضية الصالحة للترويج لهذه الفكرة ولم يقف الأمر عند هذا الحد لقد قام عدد من مفكرى الفلسفة الماركسية بالحديث عن هذه الفكرة هنا وهناك.

منذ اكثر من عام وأناس ليسوا بالقليل ماضون في الحديث عن المحنة الماركسية انهم أناس تضيق آفاق الرؤية عندهم ويقولون بان الماركسية في مازق.. ولكن حقاً هل الماركسية في مازق؟! اذا كان الأمر صحيحاً فكيف بالماركسية أن تكون نظاماً معرفياً...

فعندما نقول بان فكرة ما أو نظاماً أو معتقداً أو ما إلى ذلك «في مازق» فذلك يعنى بان الحالة قد وصلت بها إلى مسدات الطرق ومنغلقاتها ويستوجب وجود البديل لغرض معالجة الأمر وعلى سبيل المثال لا الحصر فعند حديثنا عن النظام الرأسمالي فأننا نتحدث عن نظام قد وصلت به حدة

المأزق الى طريق مسدود ولغرض الخلاص من هذا المسد يستوجب وجود البديل والبديل هو النظام الاشتراكي الذي قد تحدث عنه لينين كثيراً. و وفقاً لهذا المنظار يستوجب أن يكون لكل أزمة بديلاً علاجياً. وهنا نكرر القول: اذا ما كانت الفكرة الماركسية في أزمة فما هي الفكرة البديلة والماركسية طبعاً منهج معرفي؟!

لقد كانت الماركسية على رأس المعارف التي سدت الفراغات الفكرية خدمة لشعوب العالم. لم يدع ماركس وانجلز يوماً بان نتاجاتهم عبارة عن نظريات متكاملة غير منقوصة. فأذا ما كانوا قد ادعوا ذلك قدرأ او كان الأمر كذلك فما كان من الممكن التحدث عندئذ عن جملة من المواضيع الأساسية ومثالاً فان الرأسمالية في زمن ماركس لم يكن قد وصلت الى مرحلة الإمبريالية فانذاك قد كتب لينين «الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية». الأمبريالية تجدد نفسها اليوم في مرحلة «مابعد الأمبريالية» هذا ماهو مطلوب من الماركسيين المجددين الابداع فيه على ضوء الخطوط العامة لواعى هذه الفلسفة. النفط كذلك لم يكن موجوداً زمن ماركس غير انه يشكل اليوم الدعامة الاقتصادية الاساسية لمعظم بلدان العالم. ولا يمكن اخراج موضوع النفط من القاموس الماركسي واذا ما لم يكون كومونة باريس «المشاعية» قد حدثت فلم يكن مستبعداً أن لا يتطرق ماركس الى فلسفته بالشكل الذي نراه اليوم. حسناً فهل كان أمراً ممكناً اخراج مسألة الدولة من القاموس الماركسي. وبالرغم من أن ماركس ولينين لم يكونا قد تطرقا الى مسألة الدولة بالدقة المطلوبة فانهما قد تركا لنا ورثة من الاستفسارات حول انواعها وإبتعاد الدول والاضراب عن التداخلات وما الى ذلك (وهذا باب مستقل آخر ووفقاً للمفهوم اعلاه يقول لينين «قد صاغ التصميم، ماركس» أي قد وضع لنا ماركس الخطوط العريضة الخاصة بقوانين المجتمع الانساني، وفي كتابه الأكثر شهرة «الرأسمال» يبحث ماركس عن القوانين التي تدير نظاماً إنتاجياً رأسمالياً ويستعرض فيها تلك الخلافات التي تفسد هذا النظام من الداخل ويعلل في الكتاب في نفس الوقت ماركس، مصير تلك الواقعة المؤلمة.

ونصل هنا الى نقطه مهمة مفادها أنه لم يدع ماركس ولا انجلز ولا لينين ولا عامة المنظرين الفكرين الماركسيين أن الفكرة الماركسية فكرة كاملة غير منقوصة واذا ما كان الأمر على هذه الشاكلة لكان عليهم أن يقدموا معلومات عن نهاية التاريخ. لقد وضع ماركس وانجلز مجموعة من النتائج الفكرية المحكمة البناء ويبقى دور المنظرين في بلورة الأفكار النظرية المستقاة وفق الواقع العصري الذي لاجله يتم عملية البلورة النظرية.

ومع ما يطرأ من تغييرات على الحياة فان النظريات الفكرية تحتاج الى اضافات فكرية جديدة لتلائم بالتمام والكمال مع واقع التغييرات الحاصلة. لقد كان مؤسسوا النظرية الماركسية ضد فكرة اضعاف الكمالية على نظرياتهم التي تبناها.

لقد كان جديراً بهم قول ذلك فلو فرضنا جدلاً بانهم قد تركوا لنا ورثة فكرية كاملة غير منقوصة فماذا كان يعني ذلك من وجهة نظر المفكرين الماديين؟ ان النظريات الفلسفية جميعها مستقاة من

واقع الحياة ومن ثم بلورتها لتلائم مع هذا الواقع الجديد وبما أن الواقع في تغير مستمر فان الابداع الفكري في الماركسية يفرض ذاتها وفق نوع التغيير الذي يطرأ على الحياة وبهذا تصبح الفكرة والنظرية المبلورتين منسجمة لمرحلة تعرضت الى التغيير. ان قراءة ما أوردناها تدحض فكرة أن الماركسية قد اصابتها المأزق والصحيح هو أن الماركسية قد اصابتها نكوص يستوجب ايجاد حل له، لنقل مثلاً، كان ماركس قد اعتقد بأن المجتمع الانساني قد بدأ بمرحلة العبودية غير أن انجلز قد أشار في وقت مبكر بان المجتمع الانساني قد مر بمراحل أخرى قبل أن يمر بمرحلة العبودية سميت بالمشاعية البدائية حيث عاش المجتمع الانساني خلالها بعيداً عن الاستغلال والتعسف وهذا مايعنى شيوع المساواة غير أنه قد تلت هذه المرحلة مرحلة عفوية لاحضارية لم تكن تتسم بحضور النظام وتبعتها مرحلة توزيع الاعمال وانذاك فقط قد ظهرت مرحلة العبودية التي إتسمت وبجسامة بحالات الاستغلال والقهر من قبل الانسان لاخيه الانسان. هذه الفكرة التي كانت لأنجلز اصلاً اقربها ماركس واعتقدها. وحول الطريقة التي تم بها تحرير العمال الايرلنديين في انكلترا كان لماركس ومنذ البداية مفهومه الخاص ومن ثم أخذ يستقى اعتقاداً آخر اكثر مصداقية وملائمة، هذا اضافة الى مسألة الماركسية وطريقة ربطها بالقضية القومية بعد موت ماركس وانجلز. ان هذه المسألة مازالت مسألة بحث من قبل الاحزاب الشيوعية العالمية وتعتبر بمثابة احدى العوامل التي ساهمت في ظهور فكرة «البيروسترويكا» حيث تجسمت هذه الفكرة فيها.

ان الحقائق التي اشرنا اليها أعلاه تجعلنا ننظر الى الماركسية بأعين وضاءة ونعيد من قراءتها بروح جديدة وندحض كافة الآراء التي تدعى عدم الاحقية في مداخلة افكار الماركسيين، من الذين ثبتوا اركان الفكرة.. فماذا اذا ماكان الأمر على هذه الشاكلة...

فإن كل نتاجات ماركس وانجلز ولينين تصبح بمثابة كتاب سماوى، ومن غير شك انه اليوم قدتم دحض كثير من تصوراتهم، اما ان مسيرة الحياة قد فندتها، او تحتاج الى اضافات جديدة، غير اننا يجب ان لانسى بان الخطوط العريضة العامة التي خلفتها لنا الماركسية اكثر اصاله وصحة من أي وقت مضى.

ان المحور الثاني لحديثنا يتعلق بالماركسية والثورة. ان الماركسية تعني الثورة.. ومنذ التاريخ الأولي الذي اشرت اليه محددآ كان همهم الأساس تحريف الماركسية من خطها الثوري والإتيان باصلاح مرقع.

كان برنشتاين وكاوتسكي وهابندمان بعد ذلك من المؤسسين الرواد الذين عرفوا بعد ذلك للحركة الاشتراكية الديمقراطية وخاصة الرائدین الأولین. ان هذه الفلسفة الجديدة قد بلورت من فكرتها لتقف مع مبادئ الرأسمالية ولا تتفق مطلقاً مع أسس ومبادئ النهج الماركسي (انظر لينين- الانتهازية واستفلاس الأمية الثانية) إن الاشتراكية الديمقراطية قد حاولت وتحاول الآن المحافظة على النظام الرأسمالى والدفع به بالإتجاه الأحسن كلما امكن ذلك وليس هدمه. هذه

المحاولات الاصلاحية كانت عن طريق البراج الاصلاحية والديمقراطية السلمية ونبذ فكرة دكتاتورية البروليتاريا وما الى ذلك. ومن ناحية مسألة الدفاع عن الوطن لم يكونوا قد أبدوا نزعة برجوازية فحسب بل قاموا في الوقت ذاته بمسيرة النزعة الشوفينية. كان «هايندلمان» هو أول من اتخذ هذا الموقف. ثم جاء بعده كل من كاوتسكى وغيدو ليقوما بتطبيق هذه الفكرة الجديدة معه.

يتحدث الاشتراكيون الديمقراطيون في برامجهم عن الحرية والديمقراطية وحرية التعبير عن الآراء التي تتخالف فيما بينها ويدخلونها حيز التطبيق. انهم يعادون الحرب ويخطون الطوات لأجل القضاء على البطالة غير أنهم وبما أن لهم اهداف مشتركة مع الرأسمالية فانهم لا يتحدثون عن اجراءات جذرية في النظام الرأسمالى والشىء الوحيد الذي يبحثون عنه يتركز على تجديد تلك المشكله التي قد أصابت العالم الرأسمالى والصناعي وذات العلاقة بالبنية التحتية للصناعة الرأسمالية، أي فقط الدفع بها نحو الاحسن. ومن هذا المنظور فلا يمكن الخلط بين الاشتراكية بمعناها العلمى التي تبتغى القضاء على جميع انواع الاستغلال الاجتماعي مع الاشتراكية الديمقراطية التي تتبنى من حيث الجوهر اجراء الاصلاحات وحماية النظام الراسمالي. لقد بدت هذه الاحزاب وخاصة في البلدان التي تحكمها هذه الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية تنظر اليها فى السنوات الاخيرة كأحزاب قومية بعيدة عنا الماركسية، ان هذه الاحزاب قد جردت نفسها من المثل الاشتراكية والماركسية لقد حدث وأن اتخذ الإشتراكيون الديمقراطيون مواقف تكتيكية تخالف المبادئ التي تعهدت بها سابقاً، انهم فى نضالهم السياسى اليومى في تبدل وتغير مستمرين وخاصة عند مواجهتهم لبعض المواقف الحساسة وكمثال على ذلك فان هذه الاحزاب تتحالف مع الإمبريالية والرجعية في مواسم الانتخابات وتدع ظهرها أمام كل مفهوم تقدمي.

نريد هنا العودة الى موضوع الماركسية والثورة... لقد خرجت الماركسية من كنايا واعماق المجتمع الرأسمالى الذى يكثُر فيه الاستغلال ومعوقات الحياة. وكان هذا الظهور تحليلاً للواقع الذى سادته التعسف والاستغلال بعكس ما كان مطلوباً وتحويله الى واقع يسوده الرفاهية بعيداً عن الاستغلال. غير أن تحقق الواقع الثانى يتطلب احداث تغيير جوهرى للحياة لإجتماعية الخاصة لتجتمع ما، وهذا التغيير دون أى شك يعتبر بمثابة ثورة اجتماعية. كانت هذه هى ذات الفكرة التي كان ماركس يقول فيها «الحديث الآن يدور حول احداث تغيير في العالم» أو ما كان ماركس يتمعن فيه ضمن الايديولوجية الالمانية وهو يكتب وفق المعايير التي ينظر بها الى الشيوعية فالشيوعية ليست بالظروف التي يجب أن تنشأ وليست بالهدف الذى يجب أن يتبعه الواقع.. نحن نعتبر هذه الحركة الواقعية حركة شيوعية تقوم يقلب الواقع السائد اليوم. يتم تهيئة ظروف وارضية هذه الحركة عن طريق الاقتراحات التي تقدم لها في يومها.

وهنا يجدر أن نقول بأن انجاز هذا التحليل للواقع يجب أن يكون وفق المنظور التحليلى للطبقة العاملة والذي يتم تشخيصه عن طريق ثورة اجتماعية. تحتاج هذه الثورة اضافة الى توفر الظروف

المادية الملائمة الى وجود الوعي السياسي ايضاً ونعنى بالوعي السياسي الوصول بالمجتمع
الأنسانى الى مجتمع حر بعيد عن كل انواع التعسف وهذا لاشك فيه لا يتم تحقيقه عن طريق
المنخرطين ضمن صفوف حزب شيوعي ما فقط بل يحتاج الى تعبئة الطاقة العمالية والحركة ضمن
التنظيمات السياسية وكسب ثقة غيرهم من الناس أو محاولة جرهم الى عقد التحالفات معها.
و أعتقد إن هذا كان هو السبب الذى لأجله كان لينين يقول «إن تأسيس الحزب يحتاج الى شىء
يقع خارجه» الماركسيه نهج معرفي والا لكان ينظر اليها كأى دين أو مذهب سياسى.